

تجربة الاغتراب عند الشعراء العباسيين

د . صالح بن عبد الله بن عبد العزيز الخضيرى

ملخص البحث

الاغتراب أحد الظواهر التى عانى منها المجتمع فى العصر العباسى، وصورها الشعراء خلال تجاربهم الإبداعية . ومما عمق غربتهم ما شهده ذلك العصر من تحولات سياسية واجتماعية حين تحكم فى مجريات الأمور العناصر غير العربية ، وكثر الفساد والبؤس مما أدى إلى عزلة بعض أفراد المجتمع بمن فيهم الشعراء فانسحبوا من الحياة الاجتماعية ، واختلفت غربة كل منهم بحسب الواقع الذى يعاينه ، وأخذ الاغتراب الاجتماعى نتيجة لذلك مظاهر متعددة ، كما عجز بعض الشعراء عن التكيف مع هذا الواقع فانفصلوا عن المجتمع وقطعوا الأسباب المتصلة بمتاع الدنيا الزائل وصاروا يعيشون لونا من الاغتراب الدينى .

(*) أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية - كلية المعلمين بالرياض .

ويظهر على نتاج بعضهم شىء من غربة المثل حين يحس أحدهم أنه متميز فاضل وأن غايته إصلاح مجتمعه وأمته فهو لا يستطيع أن يتواءم مع الواقع المعاش وسط أناس يعيشون الواقع كما هو ، كما ظهر فى نتاج بعضهم غربة الفشل حين عجز عن مجاراة عصره ومجتمعه فحقد على الناس ، ونقس عن نفسه بالسخرية منهم والخط من قيمتهم .

وخلال ذلك ظهر فى نتاج بعض الشعراء الاغتراب الإبداعى وذلك حين انفصل الشاعر عما كان قد أبدعه من نتاج شعرى فى فترة سابقة من حياته الفنية ووجد أن موهبته الإبداعية قد انفصلت عما يتم إبداعه لدى معاصريه وأنه قد اضطر إلى أن يسلك اتجاهاً جديداً .

ويتناول هذا البحث العناصر الرئيسية التالية :

- الاغتراب ومفهومه .
- الاغتراب الدينى .
- الاغتراب الاجتماعى .
- اغتراب المثل واغتراب الفشل .
- الاغتراب الإبداعى .

١- الاغتراب ومفهومه :

للاغتراب Alienation معان لغوية متعددة يقال : اغتراب فلان إذا تنحى عن الناس أو بعد عن الوطن أو تزوج فى غير الأقارب (١) ويقال غربت الوحش فى مغاربها أى غابت فى مكانسها .

(١) انظر فى تفصيل ذلك : الجوهري ، الصحاح تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، مادة: (غ-ر-ب) ج ١ دار العلم للملايين ص ١٩١ ، وانظر أساس البلاغة للزمخشري ط ١٩٩٦م مكتبة لبنان ، بيروت ص ٣١٨ .

ويصعب تحديد معناه فى الاصطلاح تحديداً دقيقاً ، نظراً لاختلاف استعماله فى البحوث الاجتماعية والدينية والدراسات الفلسفية ومجالات النشاطات الثقافية والأدبية وغيرها ، ويمكن استخلاص مفهوم عام للاغتراب يدور حول عناصر متقاربة كشعور الفرد بالعزلة والانفصال عن الذات والانطواء على النفس وعدم القدرة على مسايرة الآخرين والعجز عن التلاؤم معهم والإخفاق فى التكيف مع الأوضاع السائدة فى المجتمع وعدم الشعور بالانتماء .

وظاهرة الاغتراب ليست مقصورة على عصر دون عصر أو أمة دون أمة ، ولهذه الظاهرة جذور فى الفكر اليونانى القديم (١) وقد تتبع بعض مؤرخى الفلسفة ظاهرة الاغتراب فى الأفلاطونية الحديثة وانتقالها إلى اللاهوت المسيحى .

وتحدث كثيرون عن الاغتراب عند المسلمين ، قال أبو حيان التوحيدي(٢) : (أغرب الغرباء من صار غريباً فى وطنه) وأشمل من ذلك ما أورده ابن القيم الجوزية عند حديثه عن الغربة والاغتراب(٣) ، إذ فصل الحديث عن اغتراب المسلمين بين الناس واغتراب المؤمنين بين المسلمين واغتراب العلماء بين المؤمنين ، وبين أن الغربة ثلاثة أنواع :

(١) انظر د. أحمد أبو زيد (تمهيد) مجلة عالم الفكر مج ١٠ ، العدد الأول : ابريل مايو- يونيو ١٩٧٩م ، ص ٥ .

(٢) التوحيدي : الاشارات الأهلية ، طبعة جامعة فؤاد الأول ، ١٩٥٠م ، تحقيق عبد الرحمن بدوى ج ١ ، ص ٨١ .

(٣) انظر : ابن قيم الجوزية ، مدارج السالكين ، تحقيق أحمد فخرى الرفاعى وعصام فارس الحرستاني ، ج ٣ ط ١ ، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م ، دار الجبل بيروت ، ص ص ٢١٧ - ٢٣٠ .

النوع الأول : غربة أهل الله وأهل سنة رسوله بين الخلق ، وهى الغربة التى مدح رسول الله ﷺ أهلها ، وهى غربة لا وحشة على صاحبها بل هو أنس ما يكون إذا استوحش الناس .

النوع الثانى : غربة مذمومة وهى غربة أهل الباطل والفجور بين أهل الحق ، وهم أهل وحشة على كثرة مؤنسهم .

النوع الثالث : غربة مشتركة لآحمد ولآتذم فالناس كلهم فى هذه الدنيا غرباء فإنها ليست لهم بدار مقام واستشهد بأبيات من نظمه فى هذا المعنى من الغربة منها قوله (١) :

وأى اغتراب فوق غربتنا التى لها أضحت الأعداء فينا تحكم ؟
وقد زعموا أن الغريب إذا نأى وشطت به الأوطان ليس ينعم
وشرح درجات الاغتراب الثلاث : الغربة عن الأوطان ، وغربة الحال ، وغربة الهممة وهى غربة العارف ، وهذه الغربة أعلى مما قبلها ، فالعارف غريب فى أبناء الآخرة فضلاً عن أبناء الدنيا .

وتعددت دراسات الغربيين لظاهرة الاغتراب وتتوعدت نظراً لاشتداد هذه الظاهرة بين الناس ، يرى فيورباخ (٢) أن الاغتراب أساساً هو اغتراب دينى وأنه أساس كل اغتراب فلسفى أو اجتماعى نفسى أو بدنى، والفيلسوف الألمانى هيغل Hegel من أوائل من استخدم مصطلح الاغتراب

(١) المصدر السابق ص : ٢٢٥ .

(٢) لمزيد من التفصيل انظر : د. حسن حنفى (الاغتراب الدينى عند فيورباخ) مجلة

عالم الفكر - مصدر سبق ذكره - ص ٤٤ .

فى ثقافة الغرب ، وقد ميز سيمان Seeman's خمس مستويات لهذا المصطلح

هى (١) :-

- (أ) انعدام القوة فى التأثير فى المواقف الاجتماعية .
- (ب) فقدان المعنى : أى القصور عن اتخاذ القرار .
- (ج) فقدان المعايير : أى اتجاه الفرد لأساليب خاطئة لتحقيق أهدافه .
- (د) العزلة : أى انقطاع الفرد عن تيار الثقافة الذى يحيط به .
- (هـ) غربة الذات : أى انفصال الفرد عن ذاته .

ومما يجدر الإشارة إليه أن النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت تدور حول ظاهرة الاغتراب وتكاد مقولة الاغتراب (٢) أن تكون إطاراً مرجعياً لمعظم الأفكار التى يطرحها فلاسفة النظرية النقدية ونواة مركزية يدور حولها الجانب الأكبر فى مناقشاتهم وتحليلاتهم للمجتمع .

وقد صور الشعر معاناة المجتمع العربى من الاغتراب فى مراحل مختلفة من تاريخه ، وفى العصر العباسى اشتدت ظاهرة الاغتراب ، حيث برزت هذه الظاهرة فى أشعارهم على مستويات متعددة ، وذلك على النحو التالى:

(١) أحمد : دلفى بركات ، المعجم التربوى ط١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، دار الوطن للنشر والطباعة والإعلام ، الرياض ، ص ١٤ .

(٢) د٠ عبد الغفار مكاوى ، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت ، حويلات كلية الآداب بجامعة الكويت الحولية الثالثة عشرة ، الرسالة الثامنة والثمانون ط١٩٩٢-١٩٩٣ ، مجلس النشر العلمى ، ص ٢٥ .

٢- الاغتراب الدينى

عاش كثير من أفراد المجتمع العباسى وفى مقدمتهم الشعراء حياة الترف واللهو والعبث ، وانغمس بعضهم فى المجون وشرب الخمر والجري وراء الشهوات ، بالإضافة إلى التغزل بالجوارى والغلمان ، وظهر فيهم الزنادقة والملاحدة والخلعاء والمجان .

وقد دفع ذلك فئة من الشعراء إلى النفور من الخلاعة والمجون ، وانفصلوا عن بقية الشعراء وصاروا يعيشون لوناً من ألوان الاغتراب بل إن بعضهم حدث فى حياته انقلاب تام إذ إنهم مالوا إلى التقوى والورع ودعوا إلى اجتناب الآثام والشهوات وقطع الأسباب المتصلة بمتاع الدنيا الزائل ، ومن ذلك ما قاله محمد بن كناسة (ت ٢٠٧هـ) داعياً إلى قهر النفس وعدم الجرى وراء لذاتها (١) :-

ومن عجب الدنيا تُبْقِيكَ لِلْبَلَى وأنت فيها للبقاء مريد
إذا اعتادت النفس الرضاع من الهوى فإن فطام النفس عنه شديد
وأوضح من ذلك ما قاله محمود الوراق (ت ٢٣٠هـ) فى عودته إلى عدم ارتكاب المعاصى لأنها سبب خروج آدم عليه السلام من الجنة واغترابه فى هذه الحياة الدنيا ، ودعا إلى طاعة الله وعدم اقتراف الذنوب والآثام ومن ذلك قوله (٢) :-

(١) انظر الأبيات فى الأغاني لأبى الفرج الأصبهاني ، طبعة مؤسسة جمال للطباعة والنشر بيروت لبنان (مصورة عن طبعة دار الكتب) ج ١٣ ص ٣٤٢ .
(٢) الأبيات فى العقد الفريد : لأبى عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلس ، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبيارى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ج ٢٣ ، ١٣٧٢هـ / ١٩٥٢م ص ١٧٩ .

تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجى درك الجنان بها وفوز العابد
ونسيّت أن الله أخرج آدمًا منها إلى الدنيا بذنب واحد
ومن مظاهر اغترابهم تغفهم عن المناصب ودعوتهم إلى البعد عن
الوظائف حتّى لا يغتروا بمباهج الدنيا ونعيمها الزائل ولذلك أمثلة كثيرة ،
منها ما قاله الشاعر العابد عبد الله بن المبارك (ت ١٨١هـ) لوالى الصدقات
بالبصرة إسماعيل بن عليّة حين كتب إلى ابن المبارك يطلب منه أن يبعث
إليه القراء ليقوم بتشغيلهم ، فرد عليه ابن المبارك بقوله (١) : القراء ضربان
: قوم طلبوا هذا الأمر لله فأولئك لا حاجة لهم فى لقائك ، وقوم طلبوا الدنيا
فأولئك أضر على الناس من الشرط وكتب إليه (٢) :

ياجعل الدين له بازيًا	يصيد أموال المساكين
احتلت للدنيا ولذاتها	بحيلة تذهب بالدين
أين أحاديثك والقول فى	لزوم أبواب السلاطين
تقول أكرهت وماذا كذا	زل حمار العلم بالطين

ومن مظاهر اغترابهم ابتعادهم عن الوقوف على أبواب الولاة والوزراء
والقادة والخلفاء والأمراء معرضين عن الدنيا ومتاعها الزائل مؤثرين متاع
الآخرة ، ومن هؤلاء الشاعر محمد بن كناسة الذى رد على الذين عاتبوه
لعدم وقوفه على أبواب الولاة والوزراء لينال جوائزهم وعطاياهم ويزداد
رفعة ويبتعد عن عيشة الكفاف التى يحياها ، ولكنه يرفض ذلك مبيناً أنه
يريد أن يلقي ربه ولم يخالطه شيء من الدنيا بعيداً عن اللئام راضياً بأدنى
القوت يقول فى ذلك (٣) :

(١) ابن الجراح : أبو عبد الله محمد بن دواد ، الورقة ، تحقيق د. عبد الوهاب عزام
وعبد الستار أحمد فراج ، طبعة دار المعارف بمصر ط ٢ (د.ت) ص ١٦ .

(٢) المصدر السابق ص ص ١٦-١٧ .

تؤنبنى أن صنت عرض عصابة لها بين أطناب اللثام بصيص
يقولون لو غمّضت لازددت رفعة فقلت لهم إني إذن لحريص
معاشي دوين القوت والعرض وافر وبطني عن جدوى اللثام خميص
سألقي المنايا لم أخالط دنيّة ولم تسر بي في المخزيات قلوّص
ومثل ذلك مافعله الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٤هـ) الذي رفض
دعوة سليمان بن قبيصة بن يزيد المهلب حين كتب إليه يستثريه عندما صار
واليّاً على السند ، فكتب إليه الخليل أبياتاً بين خلالها أنه في غنى عن الناس
على الرغم من أنه يعيش على الكفاف منها قوله (١) :

أبلغ سليمان أنى عنه فى سعة وفى غنى غير أنى لست ذا مال
الرزق عن قدر لا الضعف ينقصه ولا يزيدك فيه حول محتال
وهناك فريق من الشعراء العباسيين مارسوا اللهو والترف شطراً من
حياتهم ، ثم غلب عليهم الزهد والورع فانسحبوا من الحياة اللاهية وانفصلوا
عن بقية الشعراء وصاروا يعيشون لوناً من العزلة والاغتراب ، ومن هؤلاء
الشعراء : المعلى الطائى الذى كان يتعاطى الفتوة والشطارة ويفسد ويشرب
الخمير ثم تاب بعد ذلك ، قال ابن المعتز (٢) "ولما تاب ترك الشعر ، وكان
يقال له : لم لاتقوله وأنت نسيج وحدك؟ فيقول : قد أبدلنى الله به تلاوة كتابه
وما قال بعد ذلك شعراً حتى مات".

وكذلك الشاعر محمد بن حازم بن عمرو الباهلى (ت ٢١٥هـ) الذى
أمضى شطراً من حياته فى اللهو والشراب والمجون وبعد أن جاوز

(١) ابن المعتز طبقات الشعراء تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، دار المعارف بمصر ،

ط ٣ ، ١٩٧٦م ، ص ٩٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٣٤ .

الخمسين من عمره ثاب إلى رشده ويتضح ذلك من رده على إبراهيم بن المهدي حينما دعاه للشراب فأبى وأنشد يقول (١) :

أبعد خمسين أصبو ؟ والشيب للجهل حرب
سنّ وشيب وجهل أمرٌ لعمرك صعب
آليت أشرب كأساً ماحج لله ركب

ودعا إلى العزلة وقطع الأسباب المتصلة بالناس ولو كانوا أقرب الأقرباء وأن يفرع الإنسان الله وحده كقوله (٢) :

اضرع إلى الله لاتضرع إلى الناس واقنع بيبأس فإن العز في اليأس
واستغن عن كل ذي قربي وذى رحم إن الغنى من استغنى عن الناس
وكذلك أبو العتاهية (ت ٢١١هـ) خاض فيما خاض فيه معاصروه
وخلال عهد هارون الرشيد تحول تحولاً تاماً عن العزل والمنادمة واللهو
واتجه نحو التقشف والزهد ، وحبسه الشريد ثم أطلقه بعد أن استعطفه بأبيات
منها (٣) :

إنما أنت رحمة وسلامة زادك الله غبطة وكرامه
لو توجعت لى فروحت عنى روح الله عنك يوم القيامة
وقال قصائد يدعو فيها إلى النفور من متاع الدنيا ، ويذكر بالموت
ويصور وحشة القبر وقد أبكت إحدى قصائده هارون الرشيد حينما تغنى بها
الملاحون فى نهر دجلة منها قوله (٤) :

-
- (١) الأغاني لأبى الفرج الاصبهاني ، مصدر سبق ذكره ج ١٤ ، ص ١٠٥ .
(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد - مصدر سبق ذكره - ج ٣ ص ٢٠٧ .
(٣) ابن المعتز ، طبقات الشعراء - مصدر سبق ذكره - ص ص ٢٣١-٢٣٢ .
(٤) ديوان أبى العتاهية ، تحقيق د. شكري فيصل ، دار الملاح للطباعة والنشر ،
دمشق ص ص ٩٨-٩٩ .

بَيِّنْ عَيْنِي كُلَّ حَيٍّ عِلْمَ الْمَوْتِ يَلُوحُ
نَحْ عَلَى نَفْسِكَ يَا مُسْكِينِ إِنْ كُنْتَ تَتَوَحَّ
لَتَمُوتَنَّ وَإِنْ عَمَّرْتَ مَا عُمِّرَ نُوْحُ

وقد حاول بعض هؤلاء الشعراء مواجهة الاغتراب والتخلص منه مع التمسك بما آمن به وتيقنه من أنه لاتصلح الحياة إلا بالدين ، ولعل أبرز هؤلاء عبد الله بن المبارك الذي لم يرض للمسلم الورع أن يصبح طاقة معطلة وحاول أن يخرج به إلى ميدان الحياة الحقيقية فحث على المشاركة بالجهاد في سبيل الله بل إنه قام بالخروج مع الجيوش الغازية للجهاد في سبيل الله كما حرص على حث الجند وتحسينهم على الاستبسال في القتال ، وبذلك تمكن من تخفيف حياة العزلة وتخفيف وطأة الاغتراب ، وقد قال قصيدة وهو مع المجاهدين في "طرسوس" وجهها إلى أولئك العباد الزاهدين الذين يعيشون في عزلة تامة عن الناس من أمثال الفضيل بن عياض الذي كان مجاوراً في مكة المكرمة سنة سبع وسبعين ومائة ، منها قوله (١) :

يا عابد الحرمين لو ابصرتنا	لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب جيده بدموعه	فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل	فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عيبرنا	وهج السناكب والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا	قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوى أغبار خيل الله في	أنف امرئ ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطبق بيئتنا	ليس الشهيد بميت لا يكذب

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب مع استراكات وفهارس جامعة ، ج ٢ (دوت) ، ص ص ١٠٣-١٠٤ .

٣- الاغتراب الاجتماعى

شهد العصر العباسى كثيراً من التغيرات السياسية والتحولات الاجتماعية التى جعلت بعض الشعراء لا يستطيعون التكيف مع الواقع الاجتماعى ، فقد كثر الفساد وعم الناس البؤس بعد أن تولى بعض المناصب غير أهلها ، ومما عمق غربتهم تحكم العنصر الفارسى فى مجريات الأمور ثم الترك والبويهيين والسلاجقة ، وضعف سلطة الخلافة وتجزؤ الدولة إلى دويلات ، بحيث أصبح العربى يشعر بالغربة والفشل والخذلان والانفصال عن ماضيه المجيد حينما كانت له السيادة .

ثم اختلفت آراؤهم بعد أن نهلوا من الثقافات الأجنبية فنشأت الفرق وتتنوعت المذاهب ونشطت الحركات السرية التى تسعى إلى تحقيق غايات معينة ، وأدى ذلك إلى عزلة بعض الشعراء فانسحبوا من الحياة الاجتماعية ، واختلفت درجة غربة كل منهم بحسب الواقع الذى يعاينيه والفترة الزمنية التى عاش فيها ، وأخذ الاغتراب الاجتماعى مظاهر متعددة منها ما يأتى :

رفض المجتمع والحياة الاجتماعية :

كان هذا المظهر من مظاهر الغربة نادر الحدوث فى مطلع العصر العباسى ، ولكن بعد مرور حقبة من الزمن صار أكثر شدة وعمقاً ومن الشعراء الذى عبروا عن هذا النوع من الغربة الأحيمر السعدى (ت ١٧٠هـ) الذى خلعه قومه لكثرة جنائياته فخرج للعيش فى الفلوات وقفار الأرض ، وعاش مع بهائم الوحش ، وقال أبياتاً صور خلالها غربته ونفوره من النوع الإنسانى وكرهته لأن يخطر الناس بباله كما صور أنسه بالسباع والوحوش وزوال وحشته برؤيتها يقول فى ذلك (١) :

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار التراث العربى للطباعة

القاهرة ، ١٩٧٧م ، ط ٣ ص ٧٩١ .

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوت إنسان فكدت أطيّر
 رأى الله انسى للأنيس لشانىء وتبعضهم لى مقلة وضمير
 قلليل إذوارنى الليل حكمه وللشمس إن غابت على تدور
 ومع مرور الزمن تتغير الظروف الثقافية والاجتماعية وطبيعة الحياة
 ويشتد إحساس الشعراء بالانفصال الاجتماعى ويأتى أبو العلاء المعرى
 (ت ٤٤٩هـ) فى مقدمة هؤلاء ويكون رفضه للمجتمع والحياة الاجتماعية أشد
 حدة ، فهو يرى أن الإنسان يجب أن يعيش فى قطيعة تامة مع المجتمع وأن
 الناس مظنة الشر وأنه يجب تجنبهم وعدم مؤاخاتهم يقول فى ذلك (١) :

فطن بسائر الإخوان شراً ولا تأمن على سر فؤادا
 فلو خبرتهم الجوزاء خبرى لما طلعت مخافة أن تكادا
 تجنببت الأنام فما أو أخى وزدت على العدو فما أعادى

وتشتد غربته فى المجتمع حين يدعو إلى العزوف عن الزواج وعدم
 التناسل ، فهو لا يريد للناس أن يتناسلوا فيتكاثر عددهم وتزداد شرورهم ،
 وكأنه يريد فناء المجتمع الإنسانى كله ، وانقراضه من على وجه الأرض
 ويتضح ذلك فى قوله (٢) :

دع النسل ، إن النسل عقباه ميته ويهجر طيب الراح خوفاً من السكر
 ويلج أبو العلا المعرى على رفض المجتمع والحياة الاجتماعية ورفض
 كل مقومات الأسرة ، فهو يرى أن الإنسان إذا كان لديه رغبة فى الزواج
 فعليه بالمرأة العقيم كقوله (٣) :

(١) المعرى ، سقط الزند ، تحقيق إبراهيم الزين ، دار الفكر ببيروت ، ١٩٦٥ ، ص
 ١٩٧-١٩٨ .

(٢) المعرى : اللزوميات ، دار صادر ببيروت ، ١٩٦١م ، ج ١ ، ص ٣٧٥ .

(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٩١ .

إذا شئت يوماً وصلاً بقرينة فخير نساء العالمين عقيماً
وقد حاول الدكتور محمود رجب أن يبين السبب وراء عزلة هؤلاء
وعدم رغبتهم في الاختلاط في المجتمع فيبين أن المرء حين يستشعر في
حياته البعد والانفصال عن مجتمعه أو جماعته (١) "لا ينتمى إلى المجتمع
ولا يحب الاختلاط بالناس لأنهما في نظره من عوامل ضياع ذاته الحقيقية
وشخصيته الفردية" وهذا السبب يمكن أن ينطبق على المغتربين من الشعراء
العباسيين إذا أضفنا إليه ماسبق ذكره من أسباب سياسية واجتماعية وثقافية .
التظاهر بالحمق :

والتظاهر بالحمق مظهر من مظاهر الاغتراب عند الشعراء العباسيين .
لقد عانى عدد منهم من الفقر والبؤس بعد تغير الأحوال السياسية وتبدل
الأوضاع الاجتماعية ، وحينما لم يستطيعوا التكيف مع هذا الوضع اضطروا
للانفصال عن الواقع الاجتماعي وذلك عن طريق التظاهر بالحمق والبله ،
وقد كثر عددهم حتى أنهم شكلوا ظاهرة خاصة من ظواهر الشعر العباسي ،
ومنهم علي سبيل المثال أحمد بن محمد العباسي الهاشمي المعروف بابي
العبر (ت ٢٥٠هـ) وأبو العنيس محمد بن إسحاق الصيمري (ت ٢٧٥هـ)
وأبو عبيد الله الحسين بن أحمد الكاتب المعروف بابن الحجاج (ت ٣٩١هـ)
وأبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكي المعروف بابي الرقعمق (ت ٣٩٩هـ)
وأبو الحسن محمد بن عبد الواحد القصار المعروف بصريع الدلاء
(ت ٤١٢هـ) وغيرهم . وكان كثير منهم قد نحى منحى الجد في شعره ،
فترة طويلة من الزمن ، غير أنهم حين رأوا الهزل والسخف قد غلب على
الناس انصرفوا إلى الفكاهة والتحامق فنفتت سوقهم .

(١) د. محمود رجب ، الاغتراب أنواع ، مجلة الفكر المعاصر ، العدد الخامس يوليو

وقد بين عبد الله بن المعتز سبب ميل هؤلاء الشعراء إلى الحمق والبله عند حديثه عن أبي العبر ، فقد قال عنه (١) : " وكان من آدب الناس إلا أنه لما نظر إلى الحماقة والهزل أنفق على أهل عصره أخذ منها وترك العقل فصار في الرقاعة رأساً " ، وكان يؤمر على الحمقى فيشاورونه في أمورهم . وكانت إجاباته على الأسئلة التي توجه إليه قد استهوت فئة من الناس وأعجبتهم ، فقد سئل أبو العبر (٢) " لم صار دجلة أعرض من الفرات والقطن أبيض من الكمأة ؟ فقال : لأن الشاة ليس لها منقار وذنب الطاووس أربعة أشبار . . وقال آخر : لم صار كل خصي أمرد ، والماء في حزيران لا يبرد ؟ فقال : لأن السفينة تجنح والحمار يرمح " . ومن أشعارهم ما قاله ابن الحجاج مينا سبب ميله إلى هذا اللون من الشعر (٣) :

لو جدّ شعري رأيت فيه كواكب الليل كيف تسرى
وإنما هزله مجنون يمشى به في المعاش أمرى

ويقول أبو العجل راداً على من يلومه في تحامقه (٤)

أيا عاذلي في الحمق دعني من العذل فإني رضى البال من كثرة الشغل
فمرني بما أحببت آتى خلافه فإن جئتنى بالجد جئتكَ بالهزل
وإن قلت لي لم كان ذاك؟ جوابه لأنى قد استكرت من قلة العقل
فأصبحت في الحمقى أميراً مؤمراً وما أحد في الناس يمكنه عزلى
وصير لي حمقى بغالاً وغلمة وكنت زمان العقل ممطياً رجلى

(١) ابن المعتز ، طبقات الشعراء - مصدر سبق ذكره - ص ٣٤٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٤٣ .

(٣) الثعالبي : يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبوعات دار الفكر ، بيروت ، ج ٣ ط ٢ ، ١٣٩٢ هـ ، ١٩٧٣ م ، ص ٣٢ .

(٤) المعتز : طبقات الشعراء - مصدر سبق ذكره - ص ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

وقد بين خلال هذه الأبيات طريقته فى التحامق فهو يفعل خلاف ما يؤمر ويعكس ما يراد منه ويأتى بالهزل مقابل الجد ، ولذا أصبح فى الحمقى أميراً مؤمراً ولايستطيع أحد عزله ، وصار يسير فى موكب من غلمانه وبغاله بعد أن كان يسير على قدميه .

وقد حاول الدكتور مصطفى هدارة تحليل هذه الظاهرة وما شاكلها من الظواهر التى انتشرت فى العصر العباسى فأرجع ذلك إلى فقدان التوازن فى الحياة الاجتماعية إثر الحرب بين الأمين والمأمون ، يقول فى ذلك كان من أثر فقدان التوازن فى الحياة الاجتماعية أيام الأمين . . أن ظهر الاحتلال واضحاً فى البناء الاجتماعى وازدادت الهوة اتساعاً بين الطبقات المختلفة وانكشفت بغداد الفاتنة الثرية المتألثة بالمال والجواهر عن جانبها الفقير المحطم . . وازدادت الصورة وضوحاً بجوانبها المختلفة حين حدثت الفتنة بين الأمين والمأمون (١) .

وعلى الرغم من أن مذكره د. هدارة كان أقرب إلى واقع الحياة الاجتماعية فى ذلك الوقت فإن ذلك ليس خاصاً بالفترة الزمنية التى أعقبت عهد الأمين بل امتد حتى بلغ القرن الخامس الهجرى ، كما أن هذه الظاهرة ليست خاصة ببغداد وما جاورها بل كانت منتشرة فى أماكن أخرى كالشام ومصر ، ومن الأمثلة على ذلك ما فعله الشاعر أبو الرقعق الذى أمضى فترة من حياته فى الشام ثم انتقل إلى مصر ومدح الفاطميين وعاش حتى توفى فيها ومن أشعاره التى تمثل ظاهرة التحامق قوله (٢) :

(١) د. محمد مصطفى هدارة ، اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى ، دار المعارف ، القاهرة ص ٣ ، ص ٧٢

(٢) التعاللى : يتيمة الدهر - مصدر سبق ذكره - ج ١ ص ص ٣٢٣-٣٢٤ .

كتب الحصار إلى السرير إن الفصيل ابن البعير
فلمئلا طرب الأمير إلى طباهجة بقيـر
فلأمنعن حمارتي سنتين من علف الشعير

وقوله أيضاً (١) :

قد عشت دهرأ أعول عقلى والناس إذ ذاك يبعدونى
فمذ تحامقت قد كسانى حمقى وقد عالنى جنونى

الشكوى :

الشكوى والضيق بالحياة والتبرم بها مظهر من مظاهر الاغتراب الاجتماعي عند الشعراء العباسيين ، وقد أدى ذلك إلى عدم قدرة بعض الشعراء على التلاؤم مع واقع الحياة الاجتماعية ، فغلب على كثير منهم الشعور بالوحدة والضياح والغربة .

وكان بعضهم فى بداية ازدياد الشكوى يرى أن للدهر أياماً تجور فيها ، وأياماً تعدل فيها ، ويدعو النفس الإنسانية إلى تحمل ذلك كقول على بن الجهم (ت ٢٤٩هـ) :

هى النفس ما حملتها تتحمل وللدهر أيام تجور وتعديل

ولكن الشكوى من صروف الزمان اشتدت بعد اضطراب الأحوال السياسية والاجتماعية ، فعمّ البؤس والنكد وضاق الناس بالحياة ، وصار الشعراء يحاولون الهروب من الواقع الذى يعيشونه ، ومن ذلك ما قاله الأمير العباسى الشاعر عبد الله بن المعتز (ت ٢٩٦هـ) مصوراً النكد والبؤس الذى لاخلص منه إلا بالهروب إلى الموت وذلك فى قوله (٢) :

(١) المصدر السابق ، ص ٣٢٦ .

(٢) ديوان ابن المعتز ، منشورات دار صادر ، بيروت (دوت) ص ١٨٦ .

لم يبق في العيش غير البؤس والنكد فاهرب إلى الموت من هم ومن نكد
ملأت يادهر عيني من مكارهها يادهر حسبك قد أسرفت فاقصد
وقد أكثر المتنبى (ت ٣٥٤هـ) من الحديث عن تجاربه مع ظروف
الزمان ، وما عناه من مصائب وضيق وتيرم بالحياة ، وما لاقاه من كدر
وغصة وحرمان ، وما تجربة من مرارة الزمان ، يقول في ذلك (١)
صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من شأنه ما عانا
وتولوا بغصة كلهم منه وإن سرّ بعضهم أحيانا
ربما تحسن الصنيع لئاليه ولكن تكدر الإحسانا
ويجأ أبو اسحاق الصابي (ت ٣٨٤هـ) بالشكوى ، ويتبرم مما أصابه
من نكبات ، معلناً أن للموت حلاوة كالعسل وللعيش مرارة كالصبر
كقوله (٢):

أخرج من نكبة وأدخل في أخرى فنحسى بهن متصل
فالعيش مرّ كأنه صبر والموت حلو كأنه عسل
أما أبو الحسن محمد بن محمد المعروف بابن لنكك (ت ٣٦٠هـ) فإنه
انطوى على نفسه واعتزل في منزله بعيداً عن الناس بعد أن عانى كثيراً من
عجائب الزمان وانقلاب المعايير التي رفعت الوضع وهبطت بالرفيع بعد أن
أمسك العلوج بزمام الأمور وذهب الأحرار ، ولذا فهو يرى أن من يموت
جدير بأن تقدم له التهنئة يقول في ذلك (٣) :

(١) ديوان أبي الطيب المتنبى بشرح أبي البقاء العكبري ، تحقيق مصطفى السقا
ولإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شليبي ، طبعة دار المعرفة بيروت (د٠ت) ، ج ٤ ، ص
٢٣٩-٢٤٠ .

(٢) الثعالبي ، يتيمة الدهر - مصدر سبق ذكره - ج ٢ ، ص ٢٩٢ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ٣٤٨ .

زمان رأينا فيه كل العجائب وأصبحت الأذناب فوق الذوائب
وقال (١) :

مضى الأحرار فانقرضوا وبادوا وخلفت الزمان على علوج
وقالوا قد لزم البيت جـداً فقلت لفقد فائدة الخروج
وقال (٢) :

يصيح الناس فيه من سوء حال حق من مات منهم أن يهنأ
٤- اغتراب المثل واغتراب الفشل

شهد العصر العباسي ألواناً من الاغتراب لا تشكل في الغالب تياراً
عاماً، وإنما تظهر أحياناً بشكل واضح لدى بعض الشعراء في فترة معينة ،
كغربة المثل التي تصاحب نتاج بعض الشعراء في مطلع حياتهم ، وغربة
الخيبة والفشل التي نجدها تصبغ نتاج بعض الشعراء في ختام حياتهم الفنية .
أ- غربة المثل :

تتجلى هذه الغربة حين يحسّ الشاعر أنه متميز فاضل وسط أناس
عاديين ، وأن لديه همّة عالية وطموحات تمنعه أن يتواءم مع الواقع المعاش
وسط أناس يعيشون الواقع كما هو ، وإن غايته إصلاح مجتمعه وأمته .
وخير من يمثل هذه الغربة أبو الطيب المتنبي في المرحلة الأولى من
حياته الفنية وبخاصة في شبابه ، فهو يشعر في قرارة نفسه أنه متميز فاضل
بين أناس عاديين ، وأنه يسعى لإصلاح مجتمعه وأمته وأن حاله معهم كحال
المصلحين مع مجتمعاتهم ، وأبرز ما يمثل هذه الغربة قصيدته الدالية التي
قالها في صباه ، وفيها صور نفسه في حال غربته بين قومه بحال الأنبياء

(١) المصدر السابق نفس الصفحة .

(٢) المصدر السابق ج ٢ ، ص ٣٤٩ .

مع أقوامهم، فجعل مقامه بأرض نخلة ومعاداة بنى كلب له كمقام المسيح عليه السلام بين اليهود ، وجعل حاله فى غربته فى أمته كحال النبى صالح عليه السلام الذى أرسل إلى قوم ثمود فلم يصدقوه ولم يطيعوا أمره وذلك فى قوله (١) :

ما مقامى بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود
أين فضلى إذا قنعت من الدهر بعيش معجل التتكير
عش عزيزاً أومت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود
لا بقومى شرفت بل شرفوا بى وبنفس فخرت لاجدودى
أنا ترب الندى ورب القوافى وسمام العدا وغيظ الحسود
أنا فى أمه تداركها الله غريب كصالح فى ثمود
وغربة المثل التى جعلته يشبه نفسه فى حال غربته فى قومه بحال
الأنبياء عليهم السلام فى مجتمعاتهم من أبرز الأسباب التى أدت الى تلقيبه
بالمتمبى ، بل إن أبا منصور الثعالبى أكد ذلك بما نقله عن ابن جنى ، يقول
فى ذلك (٢) : "ويحكى أنه تنبأ فى صباه ، وفتن شزيمة بقوة أدبه ، وحسن
كلامه ، وحكى أبو الفتح عثمان بن جنى قال : سمعت أبا الطيب يقول : إنما
لقبت بالمتمبى لقولى :

أنا ترب الندى ورب القوافى وسمام العدا وغيظ الحسود
أنا فى أمه تداركها الله غريب كصالح فى ثمود"
وإذا بحثنا فى أدبه عن سبب انتشار هذه الغربة وبخاصة فى مطلع
حياته الأدبية ، فإننا نجد عدداً من الأسباب المتشابهة لعل أبرزها تأثره البالغ
بالحالة التى كانت عليها البلاد الإسلامية وبخاصة البلاد العربية التى لم يكن

(١) ديوان أبى الكعب المتمبى - مصدر سبق ذكره - ج ١، ص ٣١٩-٣٢٤ .

(٢) الثعالبى ، يتيمة الدهر - مصدر سبق ذكره - ج ١ ، ص ١١٣ .

للعرب فيها نفوذ ولا سلطان ، وصارت مقاليد الأمور بيد الأعاجم وقد عبر
عن ذلك بقوله (١) :

إنما الناس بالملوك وما تفلح عُرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسب ولا عهود لهم ولا ذمم
إني وإن لمت حاسديّ فما أنكر أنى عقوبة لهم

وقد حاول في شبابه أن يقوم بنفسه بتخليص المجتمع العربي من هذا
الواقع ، فقد بلغ من كبر نفسه وبعد همته (٢) " أن دعا إلى بيعته قوما من
رائشي نبلة على الحداثة من سنه والغضاضه من عوده وحين كاد يتم له أمر
دعوته تأدى خبره إلى والى البلدة ٠٠ فأمر بحبسه وتقييده ٠٠" وقد قال أبياتاً
تدل على ذلك كقوله (٣) :

دعوتك لم برانى البلى وأوهن رجلى ثقل الحديد
وقد كان مشيهما فى النعال فقد صار مشيها فى القيود
تعجل فى وجوب الحدود وحذى قبل وجوب السجود

وبعد أن أدرك أنه لن يتمكن من تحقيق ما يصبو إليه من مثل ، اتجه
نحو الأشخاص الذين استطاعوا تحقيق جانب مما يصبوا إليه ، فمدح بدر بن
عمار والى دمشق وهو أمير عربى ، ثم اتجه نحو سيف الدولة الأمير
العربى الذى أقام دولة فى حلب بعد أن رأى فيه المتنبى (٤) "رمز دولة
العرب المفقودة ، فقد كان عربياً من تغلب بين ولادة كثرتهم من الأعاجم

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى - مصدر سبق ذكره - ج ١، ص ٥٩ .

(٢) الثعالبي ، يتيمة الدهر - مصدر سبق ذكره - ج ١-ص ١١٢ .

(٣) ديوان أبى الطيب المتنبى - مصدر سبق ذكره - ج ١، ص ٣٤٦ .

(٤) د شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، ط ١١ ، دار المعارف بمصر ،

وكان فى الوقت نفسه الدرع الذى يحمى البلاد العربية ضد الروم . . توجد فيه مثله الأعلى الذى طالما حلم به كل ذلك جعل سيف الدولة يملأ الفراغ الذى كان يحسه فى داخله منذ مطلع حياته . . .

لذلك نجد أن غربة المثل التى كان يحسها أبو الطيب المتنبى تذوب وتتلاشى وتهدأ ثورته بعد أن اتصل بسيف الدولة وتحقق عن طريقه ما كان يجيش فى صدره .

ب- غربة الفشل :

تبدو بعض مظاهر هذه الغربة عند الشاعر حين يعانى من الإحساس بالغربة الناجمة عن إخفاقه فى تحقيق ما يصبو إليه وعجزه عن مجاراة عصره فى حين يجد الآخرين قد حققوا أطماعهم ورغباتهم وهم أقل منه قيمة، فيحس فى أعماق نفسه بالفشل والحرمان فيحقد على الناس ويحتقرهم وينفس عن نفسه بالخط من قيمتهم .

وقد عاش ابن الرومى (ت ٢٨٣هـ) شطراً من حياته وهو يعانى من الإحساس بغربة الفشل إذ إنه كان يحس فى أعماق نفسه أنه لم يأخذ نصيبه كغيره من الشعراء المعاصرين له الذين كانوا يتمتعون بالخيرات . لقد أحس إحساساً عميقاً بالبؤس والخذلان والفشل بعد أن عجز عن تحقيق ما يريد ، لذلك عاش قلقاً متشائماً حاقداً على الناس حاسداً لهم ، وقد نفّس عن نفسه بالسخرية اللاذعة والهجاء الفاحش والانتقاص من الناس والخط من قيمتهم فجاءت أشعاره صورة لنفسه المظلمة المحطمة ولعل أبرز مثال يصور غربة الفشل التى عانى منها ابن الرومى ما جاء فى بانيته التى يقول فيها(١):

(١) ديوان ابن الرومى ، تحقيق د. حسين نصار وآخرين ، طبعة دار الكتب

١٣٩٣هـ/١٩٧٣م ، ج ١ ص ٢٨٠-٢٨٢ .

فليطر معشر ويعلو فإنى لا أراهم إلا بأسفل قباب
 لا أعد العلو منهم علواً بل طفوا يمين غير كذاب
 جيف انتنت فأضحت على اللجة والدر تحتها فى حجاب
 وغشاء علا عباباً من اليم وغاز المرجان تحت العباب
 ورجال تغلبوا بزمَام أنا فيه وفيهم ذو اغتراب
 غلبونى به على كل حظ غير حظ يفوت كل اغتصاب
 اننى مؤمن وأنى أخو الحق عليم بفرعه والنصاب
 قلت إن تغلبوا بغالب مغلو ب فحسبى بغالب الغلاب
 وبخل إذا اختللت رعانى بالذى بيننا من الأسباب
 أترانى دون الأولى بلغوا الآ مال من شرط ومن كتاب ؟
 وتجار مثل البهائم فازوا بالمنى فى النفوس والأحاب
 ويظلون فى المناعم واللد ات بين الكواعب الأتراب

وتبدو غربة الفشل خلال هذه الأبيات فى احتقاره للناس وتصويره
 إياهم بالبهائم ، وأنهم مهما علوا فإنهم كالجيف المنتنة حينما تطفوا على
 السطح وتخفى تحتها الدرر القيمة ، ثم بين أن سبب غربته يكمن فى فشله
 وعجزه عن مجاراة عصره ومجتمعه عندما تغلب عليه من هم أقل منه قيمة
 ثم يعلن نقمته وسخطه على الحظ فهو سبب نحسه وشؤمه وتعاسته وفشله .
 ويبدو أن سبب سيطرة غربة الفشل عليه - كما يفهم من سياق الأبيات
 - هو ضيق حيلته فى خضم الحياة وعجزه عن مجاراة عصره ومجتمعه ،
 وقد أكد ذلك بعض الدراسين الذين حاولوا استكناه الأسباب التى كانت وراء
 فشل ابن الرومى ، فقال عباس محمود العقاد (١) : " فشل لأنه كان قليل

(١) العقاد : ابن الرومى حياته من شعره ، ط ٦ ، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م ، المطبعة التجارية

الكبرى بمصر ، ص ١٥٦ .

الحيلة ، صفرأ من الدهاء ، ذلك أو جز ما يقال فى أسباب فشله ، فما من عمل كان يحتاج إلى حيلة إلا كان ابن الرومى فيه مخفقا أو كان مصدوقا عنه حتى اللعب ٠٠" ويقول أيضا "وحسب الرجل أن تقل حيلته فى أواسط القرن الثالث ليكون مقضيا عليه بالهلاك أو بالفاقة وإن اتصل بذوى الأخطار والعاملين فى سياسة الدولة ، بل يقضى عليه بالهلاك والفاقة لأنه اتصل بميدان هو أحوج الميادين إلى المكر وسعة الحيلة ٠٠" (١)

وهناك سبب آخر من أسباب فشله لا يقل أهمية عن قلة حيلته وعجزه عن مجاراة عصره ، ألا وهو تطيره وتشاؤمه ، فقد دفعه هذا إلى أن يعيش فى حذر وفرع وقلق واضطراب وتوجس وأن لا يرجو من الدنيا خيرا ، وأن ينفر من الناس ويحقد عليهم .

ولم يكن ابن الرومى الشاعر العباسى الوحيد الذى عانى غربة الفشل بل شاركه شعراء كثيرون وبخاصة الشعراء الهجاءون الذين كان قسم كبير من أشعارهم يمثل غربة الفشل أصدق تمثيل ولكن هذه الغربة لم تتمكن من نفوسهم كتمكنها من ابن الرومى .

ويأتى الشاعر على بن محمد بن نصر بن بسام البغدادي (ت ٣٠٢هـ) فى مقدمة هؤلاء الشعراء الذين كابدوا غربة الفشل وظهرت جليلة فى أشعارهم ، فهو لم يتمكن من تحقيق ما يريد وعجز عن مجاراة مجتمعه فشعر بالقلق والفشل وحسد الناس وعمل على الحط من قيمتهم ، لقد عاش هذا الشاعر وكأنه حاقد على أهله ومجتمعه ، كما هجا عدداً ممن قدموا خدمات جليلة للمجتمع وخلصوه من الويلات ، وقد أكثر من هجاء والده ويبدو والده

(١) المصدر السابق نفس الصفحة .

من خلال شعره كأنه ألد أعدائه ولم يسلم منه أمير ولا وزير ولا صغير ولا كبير وهجا أباه وإخوته وسائر أهل بيته ومن ذلك قوله فى أبيه(١):

هيك غمرت عشرين نسرا أترى أننى أموت وتبقى ؟
فلئن عشت بعد موتك يوماً لأشقن جيب مالك شقاً

٥- الاغتراب الإبداعى

ظهرت ملامح الاغتراب الإبداعى لدى بعض أعلام الشعر فى العصر العباسى ، ويبدو ذلك واضحاً عندما يشعر أحدهم أنه قد انفصل عما كان قد أبدعه من نتاج أدبى فى فترة سابقة من حياته الفنية مثل ماحدث لأبى العلاء المعرى حينما شرع فى نظم اللزوميات . وقد يشعر أن موهبته الإبداعية قد انفصلت انفصالاً تاماً عما تم أو يتم إبداعه لدى معاصريه فيجد نفسه قد سلك اتجاهًا جديدًا أو طريقة مغايرة لما يتم إبداعه فى الوسط الأدبى الذى يعيش فيه ، وخير مثال على ذلك ماحدث لأبى تمام حبيب بن أوس الطائى (ت ٢٣٢هـ) .

الاغتراب الإبداعى عند أبى تمام :

لعل من أبرز مظاهر الاغتراب الإبداعى مانجده فى أشعار أبى تمام فهى تمثل انفصالاً إبداعياً عن المنهج الذى سار عليه الشعر العربى منذ نشأته الأولى حتى عصر أبى تمام إذ أن أباً تمام قد وجد نفسه قد عدل عن مذاهب الشعر العربى المألوفة ، وانحرف عن عمود الشعر العربى من حيث

(١) ابن خلكان : ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ١ ، عام ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م ، ج ٣ ص ٤٦ .

الأساليب أو دلالات المعاني، كقوله في مدح أبي الحسن محمد بن الهيثم بن
شبانة(١):

رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه بكفيك ما ماريت في أنه برد
فقد وقف النقاد كثيراً أمام دلاله المعنى المستفادة من وصف الحلم
بالرقة ، وإنما وصفوه بالعظم والرجحان ، كما أن البرد لا يوصف بالرقة
وإنما يوصف بالمتانة والصفاء ، ومثل ذلك ما قاله في مدح محمد بن حسان
الضبي(٢) :

قدك انتب اربيت في الغلواء كم تعذلون وأنتم سجرائي
لاتسقنى ماء الملام فإننى صب قد استعذبت ماء بكائي
واستمر النتاج الإبداعي لأبي تمام في هذا الاتجاه حتى صار كثير مما
أبدعه هذا الشاعر في نظر الأمدى(٣) : " لا يعرف ولا يعلم غرضه إلا بعد
الكد والفكر وطول التأمل ، ومنه ما لا يعرف معناه إلا بالظن والحدس" .
وبسب اغتراب نتاج أبي تمام الابداعي عن المنهج الذي سار عليه
الشعر العربي أسقط بعض النقاد شعر أبي تمام ولم يدخلوه في جملة الشعراء
فقد قال ابن الأعرابي (٤) "إذا كان هذا شعراً فكلام العربي باطل" وسمع

(١) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد عبده عزام ، طبعة دار
المعارف بمصر ، ج٢ ، ص ٨٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ص ٢٠-٢٢ .

(٣) الأمدى : الموازنة بين الطائيين ، تحقيق السيد أحمد صقر ، ط٣ ، دار المعارف ،
ج١ ، ص ١٣٩ .

(٤) المصدر السابق ج ١ ص ٢٠ .

أعرابى إحدى قصائده فقال (١) "فى هذه القصيدة أشياء أفهمها وأشياء لا أفهمها ، فإما أن يكون قائلها أشعر الناس ، وإما أن يكون جميع الناس أشعر منه".

ومما ساعد أبا تمام على الانفصال عن مذاهب الشعر العربى المألوفة ميله إلى البديع ولكنه لم يتناوله كما تناوله من سبقه من الشعراء الذين أُلِّموا بشيء من البديع من أمثال العتّابى وابن هرمة وبشار بن برد ومسلم بن الوليد ، بل إنه تعمد الإسراف فى الجناس والطباق والاستعارة وغيرها ، وغلب عليه التكلف والتعقيد وبنى أكثر شعره عليها حتى إنه بلغ حد الإفراط أحيانا كقوله فى مدح اسحاق بن إبراهيم(٢) :

قرت بقران عين الدين فانشثرت بالأشترين عيون الشرك فاصطلما
وصار الأكنار من وجوه البديع وحشدها فى قصائده مظهراً من
مظاهر اغترابه الإبداعى كقوله يمدح ابن الزيات(٣) :

متى أنت عن ذهلية الحى ذاهل	وقلبك منها مدة الدهر أهـل
تطل الطلول إدمع فى كل موقف	وتمثل بالصبر الديار الموائـل
دوارس لم يجف الربيع ربوعها	ولامر فى أغفاله وهو غافـل
فقد سحبت فيها السحائب ذيلها	وقد أخلت بالنور منها الخمائـل
تعفين من زاد العفاة إذا انتحى	على الحى صرف الأزمة المتحامل
لهم سلف سمر العوالى وسامر	وفيهـم جمال لا يغيض وجامل

(١) الصولى : أخبار أبى تمام ، تحقيق خليل محمد عسكر ، ومحمد عبده عزام ، ونظير الإسلام الهندى ، المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، (دوت) ص ٢٤٥ .

(٢) ديوان أبى تمام - مصدر سبق ذكره - ج ٣ ص ١٦٩ .

(٣) المصدر السابق ج ٣ ، ص ص ١١٢-١١٥ .

ليالى اضللت العزاء وجولت بعقلك آرام الخدور العقائل
من الهيف لو أن الخلاخل صيرت لها وشحاً جالت عليها الخلاخل
وعلى الرغم من أن اغترابه الإبداعى قد ساعده على أن يصبح
صاحب أول اتجاه تجديدى له قيمة فى الشعر العربى ، فقد ظل أبو تمام
يشعر باغترابه فى كثير من المناسبات التى ينشد فيها أشعاره، فقد سمعه
اسحاق بن ابراهيم الموصلى وهو ينشد شعره فى منزل الحسين بن الضحاك
فقال اسحاق(١) : ((يافتى ما أشد ما تكىء على نفسك - يعنى أنه لا يسلك
مسلك الشعراء قبله وإنما يستقى من نفسه" ، كما سأل أبو سعيد الضرير
وأبو العثميل الأعرابى - وكانا من أعلم الناس بالشعر - لم لا تقول مايفهم ؟
فقال لهما : لم لاتفهما ما يقال ؟

وقد استندت غربته نتيجة لذلك ، فقال مصوراً اغتراب قصائده
واغترابه هو أثناء مديحه لإسحاق بن إبراهيم بن مصعب(٢) :

يغدون مغتربات فى البلاد فما يزلن يؤنس فى الآفاق مغتربا
وكذلك ما قاله مصوراً غربته وغربة أشعاره أثناء مديح محمد بن
عبد الملك الزيات (٣) :

خذها مغربة فى الأرض آنسة بكل فهم غريب حين تغترب
من كل قافية فيها إذا اجتيت من كل مايجتنيه المدنف الوصب
والوقوف على ظاهرة الاغتراب الإبداعى عند أبى تمام يكشف لنا
سبب اختلاف أبى تمام فى اختياراته الشعرية فى ديوان الحماسة عن أبى

(١) المرزبانى : أبو عبد الله محمد ابن عمران ، الموشح تحقيق على محمد البجارى
منشورات دار الفكر العربى ، القاهرة (٢٠٠٤) ص ٤٠٣ .

(٢) ديوان أبى تمام - مصدر سبق ذكره - ج ١ ص ٢٣٨ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٨ .

تمام فى نتاجه الشعرى ، فقد توقف النقاد القدامى أمام هذه الظاهرة وأدركوا أن شعره قد انفصل عن اختياراته انفصلاً بيناً ، وأكثروا الحديث فى ذلك مما دفع المرزوقى - وهو أحد شراح ديوان الحماسة - إن ينبرى لتوضيح سبب هذا الاختلاف ، فقال (١) : " وأما تعجبك من أبى تمام فى اختيار هذا المجموع وخروجه عن ميدان شعره ومفارقة ما يهواه لنفسه واجماع نقاد الشعر على ماصحبه من التوفيق فى قصده فالقول فيه : أن أباً تمام كان يختار ما يختار لجودته لا غير ، ويقول ما يقول من الشعر بشهوته ، والفرق بين ما يشتهى وما يستجد ظاهر ، بدلالة أن العارف بالبرز قد يشتهى لبس ما لا يستجده ، ويستجد ما لا يشتهى لبسه " ، وهذا يعنى أن أباً تمام الشاعر يختلف عن أبى تمام الناقد وأن أباً تمام فى نقده يختلف عن أبى تمام فى شعره .

وقد توقف عدد من النقاد والباحثين المعاصرين أمام هذه الظاهرة من أمثال الدكتور زكى نجيب محمود الذى شد انتباهه كون أبى تمام قد اختار ما اختاره على أساس يختلف اختلافاً كبيراً عن الأساس الذى كان ينظم عليه شعره يقول فى ذلك (٢) : " فكيف نفسر أن شاعراً عظيماً كهذا ينظم شعره الخاص من لون حتى إذا ما أراد يضرب للناس مثلاً للشعر الجيد جعل اختياره من لون آخر " ثم يحاول أن يجيب عن هذا التساؤل فيقول (٣) : " لقد توخى الجودة وحدها وهو يختار ، أما حين ينظم شعره فلم يسعه بالطبع ، إلا أن يطلق نفسه على سجيته " فهو فى حالة الاختيار بمثابة الناقد وأما فى

(١) المرزوقى : شرح ديوان الحماسة ، نشر الأستاذين أحمد أمين وعبد السلام هارون ، مطبعة التأليف والترجمة والنشر ، ص ٢٣٨ .

(٢) د. زكى نجيب محمود ، فى فلسفة النقد ط ١ ، دار الشرق ، ١٩٧٩م ، ص ١٤١ .

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة .

حالة الإبداع فهو شاعر ، ومعنى ذلك هنا أن أبا تمام الناقد قد لايعجبه أبا تمام الشاعر".

نخلص من هذا أن اغتراب أبى تمام أثر تأثيراً مباشراً فى نتاجه الإبداعى وجعله يخطط أول اتجاه تجديدى فى الشعر العربى له قيمة من الناحية الفنية والجمالية .

الاغتراب الإبداعى عند ابن الرومى :

من أبرز مظاهر الاغتراب الإبداعى عند ابن الرومى شعوره بضرورة الخروج على طريقة الشعراء العرب فى نظم القصيدة ، ومن ثم لم يسر على طريقة سابقة ومعاصريه الذين يجعلون القصيدة تقوم على وحدة البيت ، فهو يعمد إلى جعل أبيات قصيدته متماسكة تماسكاً تاماً وأفكاره مترابطة ترابطاً وثيقاً بحيث تتحول القصيدة إلى بناء متكامل ، وقد وفق إلى ذلك فى كثير من قصائده .

وقد مكنه من تحقيق ذلك شغفه فى استيفاء المعانى ، إذ أنه يعمد إلى استيفاء المعنى فى القصيدة فيأخذ المعنى الواحد ويسترسل فيه فيقلبه على جميع وجوهه حتى لايتترك فيه بقية لأحد بعده حتى صار ذلك علامة بارزة فى شعر ابن الرومى ، يقول عباس محمود العقاد مبيناً أثر ذلك فى شعر ابن الرومى : " وبهذا الاسترسال خرج ابن الرومى عن سنة النظامين الذين جعلوا البيت وحدة النظم ، وجعلوا القصيدة أبياتاً متفرقة يضمها سمط واحد قل أن يطرد فيه المعنى إلى عدة أبيات وقل أن يتوالى فيه النسق توالياً يستعصى على التقديم والتأخير والتبديل والتحوير ، فخالف ابن الرومى هذه

السنة ، وجعل القصيدة كلاماً واحداً لا يتم إلا بتمام المعنى الذى أراده على النحو الذى نحاه ٠٠" (١)

وساعده على هذا الاستقصاء طول نفسه فى قصائد من غير تكلف فقد يطيل فى قصائده حتى تبلغ فى بعض الأحيان ثلاثمائة بيت ولعل حرصه على استقصاء المعانى هو الذى دفع النقاد القدامى إلى أن يعدوا ابن الرومى ممن يهتم بالمعانى أكثر من اهتمامه بالألفاظ يقول ابن رشيق "ومنهم من يؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحته ولا يبالى حيث وقع من هجنة اللفظ وقبحه وخشونته كابن الرومى والمتنبى ومن شاكلهما ٠٠" (٢)

ولعل فى ذلك دلالة واضحة على أن طريقة ابن الرومى فى قصائده تمثل لونا من الاغتراب الإبداعى ، ففى عدوله عن وحدة البيت إلى وحدة القصيدة ، واستقصائه للمعانى وطول نفسه فى قصائده برهان ساطع على هذا الاغتراب ، وقصائده التى تجسد ذلك كثيرة ، منها نونيته التى قالها فى مدح إسماعيل بن بلبل ، ومنها قوله (٣) :

أَجْنَبْتُ لَكَ الْوَجْدَ أَغْصَانُ وَكُتُبَانُ	فيهن نوعان تُفَاح وَرِمَانُ
وَفَوْقَ ذِيكَ أَعْنَابٌ مَهْدَلَةٌ	سود لهن من الظلماء أَلْوَانُ
وَتَحْتَ هَاتِيكَ أَعْنَابٌ تَلُوحُ بِهِ	أَطْرَافُهُنْ قُلُوبُ الْقَوْمِ قَنَوَانُ
غُصُونُ بَانَ عَلَيْهَا الدَّهْرُ فَكَهَةٌ	وَمَا الْفَوَاكِهِ مِمَّا يَحْمِلُ الْبَانُ
وَنَرَجِسُ بَاتَ سَارَى الْطَلِّ يَضْرِبُهُ	وَأَقْحَوَانُ مَنِيرُ النُّورِ رِيَانُ
أَلْفَنُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ طَيِّبٌ حَسَنُ	فَهِنْ فَكَهَةٌ شَتَّى وَرِيحَانُ

(١) العقاد ، ابن الرومى حياته من شعره - مصدر سبق ذكره - ص ٢٧٢ .

(٢) ابن رشيق : تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، ط٤ دار الجيل ، بيروت ، لبنان ،

ج ١ ، ص ١٢٦ .

(٣) ديوان ابن الرومى مصدر سبق ذكره - ج ٦ ص ٢٤١٩ - ٢٤٢٠ .

ثمار صدق إذا عاينت ظاهرها لكنها حين تبلو الطعم خطبان
بل حلوة مرة طوراً يقال لها : شهد، وطوراً يقول الناس : ذيفان
ياليت شعري وليت غير مجدية إلا استراحة قلب وهو أسوان
لأى أمر مراد بالفتى جمعت تلك الفنون فضمتهن أفنان
تجاوزت في غصون لسن من شجر لكن غصون لها وصل وهجران
الاغتراب الإبداعى عند أبى العلاء :

وتتجلى تجربة الاغتراب الإبداعى عند أبى العلاء المعرى فى
"اللزوميات" حيث أن نتاجه فى اللزوميات يكاد ينفصل انفصلاً تاماً عما كان
قد أبدعه فى ديوانه السابق "سقط الزند" فقد اغترب عن أسلوبه الشعرى
الذى كان قد سلكه فى ذلك الديوان ، إذ نراه يضع عدداً من الكلف ويلتزم
بها فى اللزوميات ويسرف فى استعمال الغريب والجناس ، حتى أثر ذلك فى
نتاجه الشعرى وأضعفه من حيث الأسلوب والجوانب الفنية ، مثل قوله (١):

أولو الفضل فى أوطانهم غرباء تشذ وتتأى عنهم القرباء
فما سبأوا الراح الكميت للذة ولا كان منهم للخراد سباء

وقد توقف عدد من الباحثين فى العصر الحديث أمام انفصال أسلوب
أبى العلاء فى اللزوميات عن أسلوبه فى سقط الزند انفصلاً بيناً ، ومن ذلك
ما قاله الدكتور شوقى ضيف :

"وكأنى به نسى أسلوب الشعر الذى كان يعرفه فى سقط الزند ، وهل
يستطيع الإنسان أن يؤمن بأن اللزوميات التى انشأها أبو العلاء بعد ديوان

(١) المعرى : اللزوميات ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م ،
ج ١ ، ص ٤١ .

سقط الزند بنفس صورة صياغته؟ على أنه ينبغي أن نعرف أن سقط الزند لايعتبر مثلاً أعلى في الصياغة الفنية للشعر العربي" (١)

ولم يغترب أبو العلاء عن أسلوب الشعر الذى عرف به فى ديوانه "سقط الزند" فحسب بل إنه كان غير راغب فى سماع أشعاره فى ذلك الديوان ، فقد ذكر التبريزى أنه كان يكره أن يقرأ عليه شعره فى صباه (سقط الزند) وكان يغير الكلمة بعد الكلمة منه إذا قرئت عليه وكان يحثه على الاشتغال بغيره من كتبه (٢) .

واللوزم والكلف التى شكلت مظهراً من مظاهر اغترابه الإبداعى متنوعة ، بعضها نص عليه أبو العلاء وسماها كلفاً ، وبعضها لم يذكرها ، ولكن القارئ للزومياته يلحظها متناثرة فى أشعاره ، وقد ذكر فى مقدمة "الزوميات" أنه التزم ثلاث كلف ، فقال (٣) : " وقد تكلفت فى هذا التأليف ثلاث كلف ، الأولى : أنه ينتظم حروف المعجم عن آخرها ، والثانية : أنه يجيء رويه بالحركات الثلاث وبالسكون بعد ذلك ، والثالثة : أنه لزم مع كل روى فيه شئ لا يلزم من باء أو تاء أو غير ذلك من الحروف " ، وقد جعل ديوان اللزوميات فى مائة وثلاثة عشر فصلاً ، لكل حرف من الحروف الهجائية أربعة فصول على حسب حالات الروى من ضم وفتح وكسر وسكون عدا الألف فإنه قد جعل لها فصلاً واحداً لأنها لا تكون إلا ساكنة .

وهناك لوزام ألزم المعرى بها نفسه حتى صارت مظهراً من مظاهر غربته الإبداعية ، ولم يذكرها المعرى ضمن الكلف التى ذكرها فى مقدمة

(١) د شوقى ضيف ، الفن ومذاهبه فى الشعر العربى - مصدر سبق ذكره - ص ٣٤٩

(٢) لمزيد من التفصيل ، انظر : مع المعرى اللغوى للدكتور إبراهيم السامرائى ،

مؤسسة الرسالة ، ط ١ ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، ص ١٨٦ .

(٣) المعرى : اللزوميات - مصدر سبق ذكره - ص ٣ .

اللزوميات ولكن القارئ يلحظها منتشرة في اللزوميات وهي كثيرة منها :
شغفه بالغريب وحشده للألفاظ اللغوية التي لا يظهر معناها في الغالب فيحتاج
في معرفته إلى أن يبحث عنها في المعاجم أو كتب اللغة ، ولعل من أيسرها
قوله: (١)

يُقْنَعْنِي بُلْسُنُ يَمَارِسَ لِسَى فَإِنْ أَتَيْتَنِي حَلَاوَةٌ فَبَلْسِ
فُلْسٌ مَا اخْتَرْتَ إِنْ أَرَوْحَ مِنْ يَسَارِ قَارُونَ عَفَّةً وَفَلَسِ

ويكثر من هذا الإغراب المؤدى إلى الغموض على الرغم من أن
غايته من اللزوميات هي الوعظ والتذكير وما أشبه ذلك ، يقول موضعاً
ذلك: " فمنها ما هو لحمد الله . . وبعضها تذكير للناسين وتنبية للمراقدين
وتحذير من الدنيا الكبرى " (٢)

ومن مظاهر اغترابه الإبداعى فى الصياغة التعبيرية ما كان يفعله
حين يجانس بين حشو البيت وقافيته ، كقوله (٣) :

وتجادلت فقهاؤها من حبها وتقرأت لتتالها قراؤها

وقد يلتزم ذلك فى عدد من الأبيات ، وقد يلتزم الجنس أيضاً بين
مطلع البيت وقافيته فى عدد من الأبيات مع التزامه مالا يلزم فى القافية ،
كقوله فى الكاف المضمومة مع الفاء (٤) :

سفكتُ دم الدنان وما تشكت	ويسكب من دم الأقوام سفك
أعفك عن يسار تبتغيه	رجال من بنى حواء عفك
لفك الريح عن أمر عجيب	يخبر أن أهل الأرض إفك

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٧٠ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٥ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٥ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٢٣ .

وأحياناً يلتزم الجناس بين كلمة وحرف أو حرفين فى مطلع البيت
وبين القافية ، كقوله فى الزاى المكسورة مع الواو (١) :

اغوا زيح ناظر فى معان — شهب أم حلّ بالمنايا الغوازي

ونوى زينب يهون على القلب — ب وفيه مثل الشرار النوازي

وهذه اللوازم الظاهرة وغير الظاهرة التى ألزم المعرى نفسه بها
لا تقتصر على شعره فى اللزومات فقط ، بل إنه التزم ما لا يلزم فى نثره
أيضاً وبخاصة فى كتابه "الفصول والغايات" (٢) الذى التزم فيه بالغريب ،
كما التزم فيه بإبراز غاية فى ختام كل فصل وترتيبها على حسب حروف
المعجم ، كما التزم السكون ، والتزم حرفاً قبل الحرف الذى التزمه فى
غاياته جميعاً ، والتزم أيضاً السجع فى الفصول ، وأحياناً تكون السجعات
ذات حرفين أو ثلاثة أحرف .

ولاشك فى أن غربة أبى العلاء المعرى وعزلته التى استمرت ما يقرب
من نصف قرن هى التى وفرت له الوقت الكافى لإلزام نفسه بهذه القيود بعد
أن أصبحت اللغة والتععر فيها جزءاً من حياته فى هذه العزلة .

ويبدو أن افتتان أبى العلاء بهذا اللوزام والكلف والقيود والتفنن فى
تطبيقها على نتاجه الإبداعى كان محاولة جادة منه لمواجهة الاغتراب
وتخفيف وطأته ، وإخراج ما بداخله من مشاعر وأحاسيس على هيئة صياغة
لغوية .

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٢١ .

(٢) نشر كتاب : الفصول والغايات ، بتحقيق محمود حسن زناتى ، منشورات الهيئة

العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٧ م .

خاتمة البحث :

تفشت ظاهرة الاغتراب فى المجتمع العباسى وصورها الشعراء خلال تجاربهم الشعرية وقد برزت هذه الظاهرة على مستويات متعددة ، وتبين أن وراء ذلك أسبابا كثيرة منها :

أن عدداً من أفراد المجتمع العباسى وفى مقدمتهم الشعراء عاشوا حياة الترف واللهو والمجون ، والجرى وراء الشهوات مما كان سبباً فى نفور بعضهم من ذلك وعدم قدرتهم على التلاؤم مع هذا الواقع ، فانفصلوا عن بقية الشعراء وقطعوا الأسباب المتصلة بمتاع الدنيا وصاروا يعيشون لونا من الاغتراب الدينى .

كما شهد العصر العباسى كثيراً من التغيرات السياسية والاجتماعية التى عمقت غربة الشعراء ، وجعلتهم لايسطيعون التكيف مع الواقع الاجتماعى بعد أن كثر الفساد وعم البؤس حين تولى بعض المناصب غير أهلها وبعد أن تحكم العنصر غير العربى فى مجريات الأمور ، وتجزأت الدولة إلى دويلات وضعفت سلطة الخلافة ، وأصبح العربى يشعر بالغربة والفشل والخذلان والانفصال عن ماضية المجيد حينما كانت له السيادة .

ونهل المجتمع العباسى من ثقافات الأمم المختلفة فنقشت فيهم الشبهات فنشأت الفرق وتنوعت المذاهب ونشطت الحركات السرية التى تسعى إلى تحقيق غايات معينة ، وقد أدى ذلك إلى عزلة بعض أفراد المجتمع بمن فيهم الشعراء فانسحبوا من الحياة الاجتماعية ، واختلفت درجة غربة كل منهم بحسب الواقع الذى يعانیه والفترة الزمنية التى عاش فيها ، وأخذ الاغتراب الاجتماعى نتيجة لذلك مظاهر متعددة كرفض المجتمع والحياة الاجتماعية أو الشكوى من صروف الزمان أو التظاهر بالحمق وغير ذلك .

وقد صاحب نتاج بعضهم غربة المثل وذلك حين يحس أحدهم أنه متميز فاضل وسط أناس عاديين وإن غايته إصلاح مجتمعه وأمته فهو لا يستطيع أن يتواءم مع الواقع المعاش وسط أناس يعيشون الواقع كما هو ، كما عانى بعضهم من اغتراب الفشل حين أخفق فى تحقيق ما يريد وعجز عن مجاراة عصره فى حين حقق الآخرون رغباتهم فأحس بالفشل والحرمان فنفس عن نفس باحتقار الناس والخط من قيمتهم •

وخلال ذلك أحس بعض أعلام الشعر بالاغتراب الإبداعى ، وذلك حين شعر أحدهم أنه قد انفصل عما كان قد أبدعه من نتاج شعرى فى فترة سابقة من حياته الفنية ، فأحس أن موهبته الإبداعية قد انفصلت انفصلاً تاماً عما تم أو يتم إبداعه لدى معاصرة فوجد نفسه قد سلك اتجاهًا جديدًا •